المحاضرة رقم: 08

تجريبية دافيد هيوم:

لم يكن الفيلسوف "دافيد هيوم" بمنأى عن هذه الاهتمامات التجريبية التي كان أثرها يمتد في نطاق واسع يعمل على تثبيت أركانه وفي تقوية وجوده على الساحة الثقافية، سعيا منه تجاوز المخلفات الفكرية التي تركتها الفلسفة العقلانية، خصوصا في مسألة احتواء العقل على الأفكار الفطرية ومفهوم الذات التي بدأت تتعرض إلى عواصف فكرية وحملة نقدية مكثفة للكشف عن القناع الذي كان يقف خلف الحقائق المضمرة والتي توجد خارج الذهن.

1ـ الشك:

قد يقع التساؤل منذ البداية حول إمكان اعتبار "هيوم" من الشكاك ؟ هذه المساءلة أثارت الكثير من الجدال والخلافات الفلسفية، حيث يؤكد "لابورت" ، هيوم من أتباع مذهب الشك المطلق، بينما يرى "لوروا" ان نزعة "هيوم تصنف ضمن الاحتمالية وليس الشك، لكن الجميع يتفقون على أن "هيوم " يضع حدوداً لإمكان المعرفة، لكن الخلاف في واقع الأمر يتعلق بمسألة حدودها.

يميز "هيوم " بين نمطين من المعرفة: العلاقات بين الأفكار، ثم الوقائع. ومن خصائص النمط الأول، أي العلاقات بين الأفكار، فهناك امكانية اكتشافها بواسطة عملية الفكر وحدها دون الاستناد إلى أي شيء يوجد في الكون. والحقائق الضرورية التي يمكن أن نضعها في هذا المجال هي حقائق صورية محضة، ومحكمة لكنها خاوية. والنتائج التي نصل إليها هنا ليست ضرورية إلا بسبب اتفاق العقل مع التعريفات التي وضعها. وهذا أظهر ما يكون في الحقائق الرياضية.

وعلى خلاف هذا تماما تكون الحقائق المتعلقة بالوقائع فغذا كانت الانطباعات تفرض نفسها على عقولنا، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى النتائج التي نصل إليها ابتداء من الوقائع . وهذه هي حال العلية. ومن هنا شكك فيه هيوم، كما شكك في كل الاستقراءات المبتدئة من التجربة: إنها مجرد احتمالات. إن كل توكيد يتعلق بالوقائع يجب أن يقتصر على الانطباعاتن على التجارب الجزئية، لا على النتائج المبرهن عليها من انطلاقاً من هذه الانطباعات أو التجارب الجزئية [1].

---

[1] – عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، ص616 .

هذه الحائق التي يتم الكشف عن مضمونها، تحصل بفعل الشك الذي يأتي لأغراض فلسفية يريد به "هيوم" أن يزيح اللبس عن المعارف المستقرة في العقل،" فكانت حسية هيوم وشكه في المعارف العقلية تعبيرا عن احتياجات عصره الذي اكتشف عدم تطابق النظريات المسبقة مع التجربة، فرفض كل القوانين العقلية، وآمن بشهادة الحس، واعتبر كل التصورات والمفاهيم العقلية مجرد نتاج للحس وللعادة وللربط بين العلة والمعلول وتداعي المعاني "[2].

يرى "هيوم" أن إدراكات العقل البشري تنقسم إلى نوعين متميزين : الانطباعات التي تنطبع بها حواس الإنسان، والأفكار وهي ما تخلقه الانطباعات عند الإنسان من صور ذهنية ثم يقسم الأفكار إلى بسيطة ومركبة، فالبسيط هو ما لا يمكن تحليله، أي تحديد العنصر المكوّن لها وبالتالي تحديد انطباعه الذي هو صورة لها كما يفرق من ناحية أخرى بين نوعين من المعرفة :المعرفة التي تقوم بتحديد العلاقة بين الأفكار، والمعرفة التي تخبرنا عن أمور الواقع، "ذلك هو الأساس الأول الذي يبني عليه هيوم مذهبه الفلسفي، وهو أن كل فكرة صحيحة يمكن ردّها إلى الانطباعات المباشرة التي كانت بمثابة النوافذ التي دخلت منها الخبرة التي كونت تلك الفكرة، وما لا يمكن ردّه من أفكارنا إلى انطباعاته الأولية فليس هو من الأفكار التي يركن إليها على أنها صواب" [3] .

ويرى "هيوم"، بأن تدليلاتنا عن الواقع، إنما تقوم على أساس العلاقة السببية التي تتيح للإنسان أن يتجاوز حدود الادراكات الحسية وشهادة الذاكرة في حكمه على وقائع العلم الطبيعي.

"ولم ينل الجانبان النقدي والمنطقي من فلسفة هيوم إلا اهتماما ضئيلا بالمقارنة مع الجوانب الأخرى. وغالبا ما يكتفي المهتمون بهيوم بالقول إن هذا الفيلسوف قاد التجربانية الكلاسيكية إلى الإفلاس وانتهى بتبني الشكانية. لقد كان بإمكان هذه التجربانية، حسب الوضعانيين الجدد، أن تنتهي إلى نتيجة أكثر ملاءمة مع بعض مبادئ هيوم نفسها، بدل أن تجد نفسها في طريق مسدود أو أن تنتهي إلى الشكانية. لكن الوضعانيين المناطقة قبلوا التوجه النقدي لفلسفة هيوم وقبلوا نتائجه والوضعانية، ووظفوها في هجوماتهم على الميتافيزيقا"[1] .

---

[2] – حسن حنفي: قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر، المرجع السابق، ص 30.

[3] – زكي نجيب محمود: دافيد هيوم، دار المعارف، مصر، 1958، ص 39.

[1]- Kolakovski. L: La philosophie positiviste, trad. du polonais par Claire Brendel, Ed, Danoël/Gonthier, Paris, 1976, p48.

إن هذا الحس النقدي الذي تبناه الفلاسفة التجريبيون، دفعهم إلى وضع تصور جديد لوظيفة الفلسفة، بحيث يكون دورها محصورا في فهم الظواهر الطبيعية بالرجوع إلى أسبابها ونظامها، من جانب آخر انصراف الفلاسفة إلى دراسة الأجسام المادية ووضع تفسير لها يلائم ما هو تجريبي بعيدا عن الروحانيات وسلطان الوحي، لذلك يجب التقيد بملاحظة الطبيعة التي تمثل المنهل الرئيسي لكل معارفنا المكتسبة.

2ـ مبدأ السببية:

هذا التحول، سمح بإعادة النظر في مبادئ العقل التي تحكم النظرة العلمية وردها إلى مصدرها التجريبي، وتفسير "هيوم" للسببية نموذج كلاسيكي، إذ الرابطة السببية بين حادثتين في رأيه، ليست في الواقع إلا تتابعهما على نحو مطرد، وهو تتابع تفصح عنه المشاهدة. أما فكرة الضرورة فلا وجود لها إلا في الذهن، وتوقعنا لحدوث المسبب (ب) بعد حدوث السبب (أ) لزوما، مرده تتابع الحادثتين في الخبرة الماضية بشكل متكرر، وباطراد لا غير، لهذا نقل بشكل مشروع مبدأ السببية من المبدأ العقلي إلى المبدأ الواقعي، "ومع هذا، فإن منطق هيوم منطق الشاك الخاص الذي هاجم الدين والميتافيزيقا، وأنكر حتى الاستقراء إنكاره لأي تلازم في الوقوع بين ظاهرتين وفي مجال الاستقراء كل انتقال من الظواهر إلى مفاهيمها عمل عسفي برأيه، والأكثر تعسفية تحويل المفهوم إلى معادلة رقمية صحتها ليست من الرياضيات، بل القياسات التي تنتج عنها" [1].

ونفس الشيء يفعله هيوم بخصوص مبدأ السببية حيث يرفض الموقف العقلاني الذي يرى بأن مبدأ السببية مبدأ عقليا خالصا، وأنه موجود في العقل بشكل فطري، ويقول على العكس من ذلك، وتماشيا مع نزعته التجريبية، بأن مستمد من العادة والخبرة الحسية.

من هنا يرى هيوم أن العقل وحده لا يمكنه بدون خبرة حسية أن يقدم لنا أحكاما صحيحة عن الواقع.

يقول هيوم: " إذا ما ارتبط شيئان ارتباطا لا تخلف فيه – كالحرارة واللهب مثلا، أو الثقل والصلابة – فإن العادة وحدها عندئذ تقتضينا أن نتوقع أحد الشيئين إذا ما ظهر الآخر".

---

[1] – هاني يحي نصري: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،بيروت لبنان، ط1، 2002، ص 184-183.

من هنا فالعادة عند هيوم، هي الأســـاس الذي يزودنا بالأفكار التي نكونها عن الوقائع والترابطات القائمة بينها. " إن الفكرة الواحدة تفتح السبيل امام فكرة أخرى بصفة طبيعية ويجب ان لا ينظر إلى مبدأ اتصـال الأفكار هذا كما لو كان اقتراناً لا انفصـام له، إذ ان مثل هذه الاقتران قد وقع نفيه عن التخيل ومع ذلك فإنه يجب أن لا نستنتج من ذلك أن الفكر من دونه يعجز عن الجمع بين فكرتين، إذ ليس هناك ما هو أكثر حرية من هذه الملكة. لكنه يجب علينا فقط أن ننظر إلى مبدأ الجمع هذا على أنه قوة هادئة تحالفها الغلبة عادة، وهي السبب من بين أمور أخرى في ايجاد التطابق الضيق بين اللغات على أساس أن الطبيعة إن صح التعبير تعين لكل إنسان الأفكار البسيطة الأكثر صلاحية للاتحاد في شـــكل فكرة مركبة"[2] ينظر إلى مبدأ اتصـــال الأفكار هذا كما لو كان فأصـــل كل استدلالاتنا هي الخبرة الحسية والناتجة عن "العادة" وليس عن التدليل العقلي.

وفي هذا الســياق يقول هيوم: ’’ العادة هي المرشــد العظيم للحياة البشــرية؛ فهذا المبدأ وحده (أي العادة) هو الذي يجعل خبرتنا ذات نفع لنا، ويتيح لنا أن نتوقع في المســتقبل ســلســلة من الحوادث الشبيهة بسلسلة الحوادث التي ظهرت فيما مضى’’.

هكذا فنحن قد تعودنا مثلا، أن نرى الورق يحترق حينما نقربه من النار، فيســـمح لنا هذا التعود أو العادة بأن نتوقع احتراقه مستقبلا حينما نقربه من النار. وهذا التوقع هو احتمالي عند هيوم؛ إذ ليس هناك ضـــرورة عقلية تقرر أنه لا بد أن يحترق الورق بالنار مســـتقبلا، فيمكن أن لا يحدث ذلك في المستقبل.

3ـ الهوية الذاتية:

لقد شــك "دافيد هيوم" في بداهة المصــادرات التي تنبني عليها الأطروحة القائلة بوجود هوية شخصية ثابتة التي دافع عنها "ديكارت" وبشكه في المصادرة التي تقول بأن فكرة "الأنا أفكر" يمكن إدراكها عن طريق الحدس العقلي، نظرا لبساطتها ووضوحها وتميزها، لذلك يكون الغرض من مراجعة الطرح الفلســـفي لهذه الفكرة في مفهومها، هو إيجاد إمكانية تجريبية ملائمة لتقويض أركان اليقين الديكارتي. لهذا يقول:" أن يكون للفكرة الواقعية انطباع يولدها .لكن الأنا أوالذات ليس انطباعاً بل

[2]- D .Hume : Traité de la nature humaine, trad, A. Leroy, édition Aubier, Paris, 1962, p.75.

هو ما من شأنه أن ترجع إليه مختلف انطباعاتنا وأفكارنا... فهناك فريق من الفلاسفة يقول أننا نكون في كل لحظة على وعي بما نسميه فينا نفساً، أما انا غذا ما أوغلت داخل إلى صميم نفسي، وجدتني أعثر على هذه الإحساسات الجزئية، ادراك للضوء أو الظل أو للحب والكراهية وباللذة والألم...فلايمكنني أن أعرف نفسي (أنا) في أية لحظة دون ادراك ما "[1] .

إن القول بأن ما يميز الهوية الشخصية هو بساطتها ووضوحها وثباتها عبر الزمن هو قول غير بديهي وغير مقبول في نظر "هيوم"، ذلك لأن تشكيل فكرة عن الذات أو الهوية الشخصية يستلزم توفر انطباعات وأحاسيس تكون على درجة من الثبات والاستمرار اللذان يمثلان الشرط الضروري لبروز هوية شخصية؛ والحال أن جميع أحاسيسنا، كالإحساس بالألم أو اللذة والشعور بالحزن أو الفرح... الخ، تبقى مؤقتة وعابرة لا تستقر على حال، لذلك يكون مفهوم الذات يقوم على ضوء الادراكات الجزئية. لهذا لم يقتنع بالرؤى الميتافيزيقية التي تجهزت بها الفلسفة، فتصبح المعرفة لا تطلب لذاتها، وإنما العمل على تغيير الواقع بالمعرفة، " لقد رأى "هيوم" أن المعرفة تستدعي المبادئ الذاتية التي بفضلها نتمكن من تجاوز ما هو معطى"[1].

هذه الرؤية الثاقبة التي أطلقتها الفلسفة التجريبية، قد عكست مدى ذيوع الاجتياح العلمي الذي يساهم بدوره في تبديد الأوهام والخرافات والاعتقادات التي طوقت العقل من قبل، فعملت على تحريره عن طريق نشر المعرفة والتسامح الديني حتى لا تكون الفلسفة في مواجهة صريحة مع الدين. من جانب آخر ضرورة الإيمان بالحقوق الطبيعية والسياسية التي تسود الحياة الإنسانية عن طريق تغيير النظام السياسي والاجتماعي الذي توكل له مهمة صيانتها، فلم يغادر الفلاسفة المعاصرون التوظيفات الفلسفية لهذه المفاهيم السائدة في الفلسفة الحديثة فأدركوا أنه من الضروري التوسع فيها وذلك بإعادة تمثلها ضمن المستجدات الفكرية التي تحصل في الحياة الاجتماعية. "وهكذا ترى أن التحليل النقدي للمفاهيم والمصطلحات التي تستخدمها الفلسفة أو العلوم المختلفة مهمة عريقة اضطلع بها الفلاسفة دائما وزادتها دراسات التحليليين المعاصرين دقة وثراء"[2] .

---

[1]-D .Hume : Traité de la nature humaine, p.342.

[1]- Gilles Deleuze : La philosophie critique de Kant, PUF, Paris, 1967, p. 17.

[2] – عبد الغفار مكاوي: لم الفلسفة، منشأة المعارف الإسكندرية مصر، 2006، ص 109.

هذه المســـاعي الفكرية التي برزت خلف أزمة عميقة مرت بها المجتمعات الأوروبية، قد أزاحت الكتل الظلامية من طريقها، بفضـل مجهود فلسـفي لم تنضـب طاقته عندما تحملها الفلاسـفة بكل شـجاعة وجرأة، إيمانا منهم أن وظيفة الفلسـفة هي التغيير الفكري للإنسـان، وهذا التغيير هو الذي يعكس حجم التطور الفعلي الذي تشـهده الفلسـفة والعلم عندما تنقد المفاهيم العرجاء الخاوية من كل مضمون واقعي.